

بحار الأنوار

[141] فكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليها من حيث إنها فعل الله، وعرفها من حيث إنها فعل الله، وأحبها من حيث إنها فعل الله، لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله، ولا محبا إلا بالله، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث هو عبد الله، فهذا هو الذي يقال فيه إنه فني في التوحيد، وإنه فني في نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا، ففنيانا عنا، فبقينا بلا نحن. فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء عن إيضاحها وبيانها، بعبارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام، ولاشتغالهم بأنفسهم، واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يغنيهم. فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله، إنما يدركها الإنسان في الصبي عند فقد العقل قليلا قليلا، وهو مستغرق الهم بشهواته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته إلفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا، أو فعلا من أفعال الله خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال: " سبحان الله " وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، ولا يحس بشهادتها لطول الانس بها. ولو فرض أكمه بلغ عاقلا، ثم انقشعت الغشاوة عن عينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار والنبات، والحيوان، دفعة واحدة على سبيل الفجأة. يخاف على عقله أن ينبهر، لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب على خالقها. وهذا وأمثاله من الأسباب، مع الانهماك في الشهوات، وهي التي سدت على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة والجليات إذا صارت مطلوبة، صارت معتاصة (1)، فهذا سد الأمر، فليتحقق ولذلك قيل:

(1) اعتاص عليه الأمر: أي التوى، منه رحمه